

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أَمْرٌ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ وَالْجَمَلِ

# الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ بَيْنَ الْإِهْمَالِ وَالضَّعْفِ

(خَوَاطِرٌ وَهَمُومٌ)

كتبه

سامي وريح عبد الفتاح القدومي

حقوق الطبع محفوظة لدار الوضاح

عمان - الأردن

للتواصل مع المؤلف

[swadi68@gmail.com](mailto:swadi68@gmail.com)

للاطلاع على كتب المؤلف

<http://Samiwadi.blogspot.com>

(كتب ودراسات سامي القدومي)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي هدى من أحب من عباده إلى الفقه في الدين ،  
والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، وبالسيف على الظالمين  
، وعلى آله وصحبه أجمعين .

### بين يدي هذا التوصيف لواقع طلب العلوم الشرعية في العصر الحاضر

هذا ليس بحثاً أكاديمياً ، إنما هو بثُّ لما في قلب طالب علم من همّ  
على دينه وعلى علوم شريعته ، ييث ما يشعر به ، مما يراه في الواقع ، ومما  
يستشرفه من المستقبل ، فقد نتلقى وقد نفرق ، ولكنها في نهاية الأمر  
خواطر من الواقع ، فإن تساوينا بالقرب من هذا الواقع ونظرنا من زاوية  
الخوف على العلوم الشرعية ، ومن زاوية طالب العلم العارف بمدخل  
الموضوع ومخارجه ، فإن الرؤية ستتحد .

الحذر الحذر من إهمال علوم الشريعة أو الضعف فيها ؛ لأن العلم  
بالطلب لا بتكديس الكتب ، لأن الاستفادة التامة من الكتب لا تكون إلا  
للعلماء ، وأما غيرهم فيظن أنه يستفيد ولكنه كحاطب ليل لا يدرك الأمور  
على حقيقتها ؛ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله لا يقبض

العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا<sup>١</sup>.

### ما الذي نقصده بقولنا "العلوم الشرعية"

ما الذي نقصده بقولنا "العلوم الشرعية" ؟ هل نقصد الوعظ واللطائف ، والتذكير بفضائل الأعمال والتبشير بالجنة والتخويف من النار ؟ أم نقصد التحريض على الجهاد والتحليلات السياسية ؟ أم نعني بالعلوم الشرعية معاني مفردات القرآن والأحاديث النبوية ؟

ما هي العلوم الشرعية ؟

العلوم الشرعية هي : علم القرآن الكريم والسنة النبوية وما يتعلق بهما من العلوم كعلوم القرآن وعلوم السنة وأصول الفقه وما يتعلق بذلك من علوم اللغة كالنحو والصرف وغير ذلك .

وأما علم الفقه فهو قائم على فهم الكتاب والسنة وفق قواعد الاستنباط المسماة بأصول الفقه .

---

<sup>١</sup> - شرح صحيح البخاري (١/ ٥٠)

## خارطة الورقات

هذه الورقات تتكلم في ثلاثة محاور :

الأول : أسباب إهمال العلوم الشرعية

الثاني : أسباب الضعف في العلوم الشرعية

الثالث : مقترحات علاجية لأسباب الإهمال والضعف

## أولاً : أسباب إهمال العلوم الشرعية

### ١ - النظرة المجتمعية .

في يوم من الأيام وبعد انتهائي من أداء صلاة العشاء ، استوقفني أحد المصلين ، وهو من المثقفين الدارسين ، وقد بلغ به العمر إلى مشارف الستين ، قال لي بكل فخر : لقد درس أبنائي منهاج التربية الإسلامية ، وهو يعادل مستوى بكالوريوس في الشريعة الإسلامية .

فقلت له : قل إنه منهاج قوي ، أما معادلته بمستوى خريج الجامعة في الشريعة الإسلامية ، فهذا أمر فيه مبالغة عظيمة .

لا يعلم كثير من الناس - وأجزم أن أكثرهم - أن التمكّن من العلوم الشرعية يحتاج إلى بذل الأعمار والأوقات ولا يكاد يتمكن منه الطالب ، فهو بحر واسع عميق ، ليس في هذا الأرض من شيء أو فعل أو قول إلا وله حكم من الأحكام التكليفية ، وليس من مستحدّثٍ من هذه الأشياء والأفعال والأقوال إلا وله حكم يوصف به ، فمن أراد أن يتمكن من التفسير فلا بد له من تعلم القراءة وضبطها ولا بد له من دراسة علوم القرآن وأصول التفسير والترجيح ومناهج المفسرين ، وكذلك دراسة اللغة ، سواء فقه اللغة أو غريبها أو صرفها أو نحوها أو غير ذلك من أنواع العلوم ، كعلم المعاني والبيان وغير ذلك ، وقبل كل شيء لا بد من معرفة ما جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من تفسير ، وكذلك ما جاء عن الصحابة - رضوان الله عليهم - أضف إلى ذلك معرفة أسباب النزول وتمييز الصحيح من الضعيف من كل ما هو مروى .

وإذا تكلمنا عن التمكن في معرفة صحيح السنة وتمييزها عن الضعيف فأنت تتكلم عن رجل يفني عمره وهيئات هيئات من أن يحوز ذلك كله .

وكذلك التوسع والتمكن في الفقه وأصوله ، والتبحر في الرد على أهل الزيغ والبدع والعقائد الباطلة ، إلى غير ذلك .

تفنى الأعمار ولا يحوز العالم كل العلم ، فعلوم الشريعة بحر عظيم واسع لا ساحل له .

حدثني من أثق به أن جيرانهم قد حذروا والده عندما سمح لابنه بدراسة الشريعة ، بل إن بعضهم زاد من تحذير والده قائلاً له : يا جاري العزيز لو علّمته (الحلاقة) لكان خيراً له .

والحلاقة هي مهنة قص الشعر .

بل أذكر شاباً درس معنا في الجامعة فصلاً دراسياً واحداً ، وكان من أسوأ الطلاب تحصيلاً دراسياً ، وفي السنة الثانية التقيته في السوق ، فسألته عن أخباره ، فقال لي : إنه يدرس المحاسبة . واستدرك قائلاً : وأنا من المتفوقين ، لأن للمحاسبة مستقبلاً إن تفوقت فيها ، بينما دراسة الشريعة لا مستقبل لها ولا داعي للاجتهد فيها . فقلت له : ألا تحتسب الأجر على الله . فقال لي : وهل انحصر الخير كله في دراسة الشريعة .

أنا لا أنكر عليه ميله الدراسي ، ولكني بصدد بيان النظرة المجتمعية لدراسة الشريعة.

وللأسف بعض الدكاترة الذين درّسونا في الجامعة وبعضهم في الدراسات العليا ، كانوا يتفاخرون على طلابهم بإخوانهم أو أبنائهم أو أحفادهم الذين

يدرسون التخصصات الأخرى ، بل الطامة العظمى من دكتور قد شارف على السبعين يفتخر بأخيه الذي يعمل طبيباً ، ويقلل من أمر العلوم الشرعية ، ويقول : لا يوجد جديد في العلوم الشرعية ، وفي سنة من الزمان يحفظ الطالب كل هذه العلوم الشرعية ، أما العلوم الأخرى - ويتكلم بفخر عن تخصص أخيه وابنه - فإنها تحتاج إلى علم وبحث وذكاء .

فكان بودي أن أقول له : أنت شارفت على السبعين ولا تصلح لمناظرة مع طلاب العلم في أحكام الطهارة ، علاوة على غيرها من الأحكام !! فلماذا لم تحفظ هذا العلم بسنة ؟!

إنه علم الدين ، نور الله في الأرض ، ليس كباقي العلوم ، فهامهم المستشرقون يُبذل إليهم المال والإمكانات الكثيرة ولكنهم لا يتمكنون من علم الدين تمكن العلماء الربانيين ، قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة: ٢٤]

"قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تَنَالُ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ" ٢

وقال الإمام النووي : " فإن الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات ، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات " ٣ .

فالسابقون الأذكياء كانوا يبذلون العمر في تحصيل التمكن في جانب من جوانب العلوم الشرعية :

٢ - تفسير ابن كثير ط العلمية (٦ / ٣٣١)

٣ - مغني المحتاج ، للشريبي ، دار الفكر ، ص ٨-٩ .



ذكر ابنُ الشُّبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) في ترجمة الربيع ابن سليمان المزني صاحب الشافعي (٢٦٤) قال: ( قال الأماطي: قال المزني: أنا انظر في كتاب (الرسالة) منذ خمسين سنة، ما أعلم أُنظر فيه مرَّةً إلا وأنا أستفيد شيئاً لم أكن عرفته ) ... قال القاضي عياض عن ابن التبان : (وكان كثير الدرس، ذكر أنه دَرَسَ كتاباً ألف مرة) يعني: المدوَّنة ... ذكر القاضي عياض في (ترتيب المدارك)(١) في ترجمة الإمام أبي بكر الأبهري ت (٣٧٥) أنه قال عن نفسه: (قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمس مئة مرة، والأسدية خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة

.. قال المُجيبِّي في (خلاصة الأثر) في ترجمة العلامة علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري أبو الحسن السَّجلماسي الجزائري ت (١٠٥٧) أنه بلغ الغاية القُصوى في الرواية والمحفوظات وكثرة القراءة، وحكى بعض تلامذته أنه قرأ (السته) على مشايخه دراية، وقرأ (البخاري) سبع عشرة مرَّةً بالدرس، قراءةً بحثٍّ وتدقيق، ومَرَّ على (الكشَّاف) من أوَّله إلى آخره ثلاثين مرة، منها قراءة ومنها مُطالعة

.. وفي ترجمة عبد الله بن محمد بن فَرَحون اليَعْمَري ت (٧٦٩) أنه قال عن نفسه: (لازمتُ تفسيرَ ابن عطية حتى كدت أحفظه) ... وفي ترجمة أبي القاسم بن علي بن مسعود الشاطبي أنه كاد يحفظ (صحيح البخاري) من كثرة التكرار له في كل رمضان .

ومن ذلك - أيضاً - ما ذكره السخاوي في (الضوء) في ترجمة عثمان بن عبد الله أبي عمرو المُقسِّي ت (٨٧٧) (أنه أكثر من ملازمة المرور على الكتب الأربعة: (التنبيه) و(المنهاج) و(البهجة) وأصلها، قراءةً وإقراءً، حتى صارت له بها ملكة قوية).

وفي ترجمة أحمد بن عمر الناشري اليماني : أنه اشتهر بمعرفة كتاب (الوسيط) حتى كان يعرف أين مكان المسألة فيه، وفي أيّ صفحة هي، بعد أن أُصِيبَ بالعمى.<sup>٤</sup>

## ٢ - الدخّل المتدني

علوم الشريعة تطلب لأجل الله تعالى ، ولكن على طالب الشريعة تكاليف حياتية كغيره من الناس ، فلا بد أن يؤمن المسكن والأثاث وتكاليف الزواج ، وأن يساعد أهله إن كانوا محتاجين إليه ، وإن سمحت الظروف أن يشتري مركباً ملائماً ، وغير ذلك من الأمور التي لا ينفرد طالب الشريعة بها عن غيره ، إنما مثله مثل الناس ، وهو بهذه الأشياء لا يطلب الغنى والبذخ والإسراف بل يطلب الكرامة وعزة النفس ، وهذا الذي ذكرته لا يخرج عن كونه تأمين للحاجات الحياتية .

والعلوم في عصرنا هذا تُقدّر بمردودها المادي ، وإلا فالعلوم عند الناس واحدة من ناحية تفصيلاتها الدراسية ، فعلم الفيزياء وعلم الصيدلة وعلم الطب وعلوم الهندسة وعلوم اللغة إلى غير ذلك ، كلها تُقدّر بمردودها المالي ، والمردود المالي لهذه العلوم يعتمد على قاعدة العرض والطلب ، فما يشعر الناس أنهم بحاجة فإن الطلب يزداد عليه وهكذا يرتفع دخل أصحابه ، وشعور الناس بالحاجة لشيء ما ، يختلف من بيئة لأخرى ومن عصر لآخر ، ففي مصر قبل سنتين تقريباً سمعت عبر الفضائيات عن ثلاث راقصات تهرّبن من الضريبة مدة ثلاث سنوات ، وكان مقدار

٤ - المشوق إلى القراءة وطلب العلم ، لعلي العِمْران (ص: ٩٠ - ٩٦)

الضريبة يساوي عشرين مليون جنيه مصري ، فتأمل كم كان دخلهن . وما هذا إلا لإقبال بعض الناس عليهن .

وهكذا أصبح المغنون والممثلون هم في مقدمة الناس ، وهم سَقَطُ الناس في ميزان الشريعة ، وإذا بي أرى صعولكاً منهم يُستشار على رؤوس الأشهاد بأمور تخص المسلمين وسياساتهم ودولهم ، والأمر أشهر من أن يذكر وأكثر من أن يُحصر

وفي ميزان العرض والطلب وفي ميزان الإقبال على الدنيا وترك الآخرة ، وفي ظل حكومات تعادي طلاب الشريعة وتضيق عليهم ، علاوة على أن تركهم دون عناية ، في ظل هذه الظروف يخرج طالب الشريعة إلى المجتمع ليرى مجتمعاً زاهداً بالدين وبعلم الدين ، وينتج عن الزهد بعلم الدين الزهد بحامل هذه العلوم ، فكما قال ابن الوردي :

قيمة المرء ما يحسنه                      زاد من ذلك أو أقل

ولمحاورة طلاب الشريعة قصص وليس قصة ، أذكر قبل ثماني سنوات أن جامعة في هذه البلاد كانت تمنح شهادة الدبلوم العالي في صعوبات التعلم ، وكان بعض المعلمين يقبلون عليها ، وهم يحملون تخصصات مختلفة ، فطلب إلي صديق كان يدرس في الجامعة أن أسجل معه ، وكما يُقال بالصحبة تقصر الطريق ، ولكنه أخبرني أنه سمع شيئاً مفاده أنهم لا يقبلون طلاب الشريعة ، فقلت له ولكنهم قبلوك وأنت تحمل شهادة بالتاريخ ، فقال لي : هذا ما سمعت ، ولكنني سأؤكد . فقلت له : لا داعي لأن تتعب نفسك سأتصل هاتفياً بالجامعة ، فاتصلت بالجامعة هاتفياً من باب الفضول - وحتى أكون صادقاً لم أكن بعد قد نويت التسجيل والدراسة - فتمَّ تحويلي إلى القسم المختص ، وسألتهم عن الأمر ، فقال المسؤول : نحن لا نقبل شهادة الشريعة !!!

فأي شيء ينتظر طالب الشريعة سوى التدريس وهي مهنة معروفة بتواضع دخلها ، أو الإمامة ، وهذا مثل هذا .

ولأجل هذا فلا يقبل الناس على بعث أبنائهم إلى دراسة الشريعة لأنهم يريدون لأبنائهم دراسة تحقق لهم الاكتفاء المالي الذي يخرجهم من دائرة العوز والجهد إلى دائرة الرخاء واليسر ، وهم محقون في جانب البحث عن الأفضل لأبنائهم .

### ٣ - الاستعمار الثقافي :

الاستعمار الثقافي ما هو إلا امتداد للاستعمار العسكري ، ويمشي بالتوازي مع الاستعمار الاقتصادي ، فمن استعمرهم الانجليز فاللغة الثانية بعد العربية هي الإنجليزية ، ومن استعمرهم الفرنسيون فاللغة الثانية بعد العربية الفرنسية ، قد لا يكون الأمر مطّرداً في كل البلدان ، ولكن الاستعمار الثقافي ما زال مستمراً رغم تغيير المستعمر وفق نظام القوى .

فمدارس البلدان العربية الفقيرة تُبنى بمنح مشروطة نصاً أو عرفاً ، وكما قيل :  
المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً .

وأما أنظمة التعليم فتستوي البلدان المستعمرة في السيطرة على تعليمها سواء كانت من البلاد الفقيرة أو الغنية أو البعيدة أو القريبة أو الباردة أو الحارة ، كلها أحجار على رقعة شطرنج التوجيه التعليمي الغربي ، وما الاتفاقيات التعليمية التي

تبرمها البلاد العربية مع الغرب إلا دليل على التبعية الكاملة ، ولا أريد أن أسرد كل الاتفاقيات فهذا أمر يطول ، ولكن يكفي من هذه الاتفاقيات رفع يد المعلمين عن ضبط الجيل الناشئ بأي وسيلة أو طريقة ، وما يدعونه من الأنظمة والقوانين المشروعة لضبط الجيل الناشئ ، فما هي إلا سراب فوق سراب ، وما هي إلا ذرٌّ للملح في العيون .

أذكر نموذجاً لأثر الاستعمار السيئ على العلوم الشرعية آخذاً مصر نموذجاً: " تولى المستر دنلوب - القسيس الذي عينه كرومر مستشاراً لوزارة المعارف - مهام منصبه ، وكان في يد سعادة المستشار - كما كانوا يسمونه - السلطة الفعلية الكاملة في وزارة المعارف المصرية الإسلامية.

وحين يكون القسيس على رأس السلطة في وزارة التعليم ، فما الذي يتوقع أن يكون من أمر التعليم.

... ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الإطلاق، ولكنه - على الأسلوب البطيء الأكيد المفعول - فتح مدارس جديدة تعلم (العلوم الدنيوية) ولا تعلم الدين، إلا تعليماً هامشياً هو في ذاته - كما سيحييء - جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام

... لقد كان المتخرج من هذه المدارس - بعد أربع سنوات فقط من الدراسة - يعين فور تخرجه في دواوين الحكومة براتب يبلغ أربعة جنيهاً كاملة، كانت في ذلك الحين تمثل ثروة ضخمة، إذ كانت الأسعار زهيدة إلى حد لا يتصور بالنسبة للأسعار الحالية، وكانت القوة الشرائية للجنيه المصري عظيمة، بحيث كانت الجنيهاً الأربعة تكفي للحياة الكريمة في العاصمة ذاتها، ويستطيع صاحبها أن يتزوج ويكون أسرة، ويتبقى معه بعد ذلك ما يدخره ليشتري به (الأطيان) في الريف

... أما خريج الأزهر الذي يقضى في الدراسة عشرين سنة من عمره في بعض الأحيان فلا يجد عملاً .. وإن وجد عملاً في إقامة الشعائر في المسجد فبمائة وعشرين قرشاً ، تكفي للحياة نعم ، ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذي يعمل في الديوان .

وحين يكون الوضع على هذا النحو، ويكون لك ولد تريد تعليمه، فألى أين تذهب به ؟ تذهب به إلى الأزهر ليقضى زهرة شبابه هناك ثم يتخرج ليقبى عاطلاً، أو يعمل مقيم شعائر في المسجد بهذا الراتب الضئيل؟ أم تذهب به إلى مدارس دنلوب، فيتخرج بعد أربع سنوات ليكون من المشار إليهم في المجتمع، من موظفي الحكومة الذين يتودد إليهم البقال والجزار وصاحب المسكن، ويحتلون المكانة المرموقة في كل مكان؟

لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفاً تتسابق إليه الأسر ، وكانت الأسرة التي تحوى ضمن أفرادها عالماً ، أي واحداً من خريجي الأزهر، تصبح محط الأنظار، سواء في العاصمة أو في الأقاليم، وينظر إليها الناس بالتبجيل والإكبار، لأن وظائف الدولة يحتل معظمها خريجو الأزهر، فينالون - في المجتمع الإسلامي - كل وسائل الرفعة والصعود.

وبصرف النظر عما كان في الأزهر من تخلف عن المنهج الإسلامي الصحيح، الذي كانت تمثله جامعات الأندلس، بل كان يمثله الأزهر نفسه في عصور الازدهار، من الجمع بين علوم الدين والدنيا، وإعداد الناس لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني.. فقد كان مرتبطاً في حس الناس بالإسلام، وكان رمزاً حياً له في ضمائرهم، ومن ثم كان اعتزازهم به، وتوجههم إليه، وكانت لخريجيه تلك المكانة في المجتمع الإسلامي. فأما الآن - في عهد دنلوب - فقد تغير الحال تماماً ..

لم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس " الحديثة " وفي الوقت ذاته ينالون جزاء فقرهم ضياعاً في المجتمع وهواناً فيه.

وقد تبعت بعض الأسر العريقة واحداً من أبنائها للأزهر من أجل " البركة " وابتغاء المكانة في الريف خاصة - كما صنعت أسرة مصطفى عبد الرازق مثلاً - ولكن هؤلاء الأفراد القلائل من خريجي الأزهر من الأسر العريقة والثرية لم يكونوا لينفوا الصورة العامة التي صار الأزهر إليها، وهي أنه مأوى الفقراء العاجزين عن دفع تكاليف التعليم الحديث ، العاجزين في الوقت ذاته عن نيل المكانة في المجتمع الحديث .

أما خريجو المدارس الجديدة فأولئك هم " الطبقة الجديدة " في المجتمع.. الطبقة الصاعدة ، الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر، ويفاخرون بها ، ويحضنهم المستعمر من جانبه، ويؤدي عن طريقهم الدور المطلوب، البطيء الخطوات، الأكيد المفعول ."<sup>٥</sup>

#### ٤ - التطور المحدود لحامل الشهادة الشرعية

يتخرج طالب الشريعة ويبدأ بعدها جهده الذاتي ، فإما أن يكمل دراسته العليا ، وإما أن يبقى كغيره من أهل الاختصاصات الأخرى الذين لا يريدون إكمال دراستهم العليا لأسباب كثيرة لسنا بصدددها .

<sup>٥</sup> - واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، ط ٢ ، ص ٢١٧ - ٢٢٣ .

يبدأ الخريج النشيط بطلب العلم والدراسة في دواوين العلم العظيمة ، يبذل الساعات والأيام والشهور والسنوات ، فيتفوق بالعلم أيما تفوق ، فإن كان في جماعة ما ، أو كان من أحد ما يدفعه إلى الأمام بإمكانياته عبر إذاعة أو فضائية أو دار نشر أو غير ذلك ، ظهر وبرز وقام بتأدية واجبه وفتحت له أبواب الدعوة والعلم ، وإن لم يحصل على هذا الدفع ظل علمه حبيساً في صدره أو على أوراقه أو بين دفات كتبه التي لا يعرف قيمتها إلا القليل من خواص طلاب العلم ؛ لأن العامة تضع رقابها تحت سيف الشهرة والصيت ، وهذا شأنهم في كل شيء حتى في معجون الأسنان .

فلا يوجد مؤسسات علمية حقيقية مؤثرة تقيّم طلاب العلم لتعطيهم مسميات خاصة بهم ، وتكون هذه المسميات العلمية ذات أثر في المجتمع ليُعطى كل ذي حق حقه .

قال لي صديق عزيز : إن حويت البخاري ومسلم والسنن الأربعة ومسند أحمد وكتب المذاهب والمستجدات العلمية ، فمن سيعرّف الناس بهذا حتى آخذ المصداقية التي تناسب علمي؟!

فقلت له : هذا العلم ليس كعلوم الدنيا فإن الله تعالى سيرعاك ، وأيضاً فالعلم يطلب للأجر وارتفاع المكانة عند الله قال تعالى { ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... } [المجادلة: ١١]

قال البيضاوي : " (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة (وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ويرفع العلماء



منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره<sup>٦</sup>

وَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بَعْثَفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي فَقَالَ ابْنُ أَبْنَى. قَالَ وَمَنْ ابْنُ أَبْنَى قَالَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ فَاسْتَخَلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى قَالَ إِنَّهُ قَارِيٌّ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ -صلى الله عليه وسلم- قَدْ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ.<sup>٧</sup>

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ.<sup>٨</sup>

وقد أنفق العلماء أعمارهم في طلب العلم ، لم ينفقوا سنة أو سنتين بل أنفقوا أعمارهم ، وقد كان ينزل الواحد منهم مدينة من مدن العلم فلا يُغادرها إلا بعد سنين ، ثم ينتقل إلى مدينة علم أخرى ، فهذا يحيى بن أبي كثير أقام بالمدينة عشر سنين في طلب العلم<sup>٩</sup>. وقد وصفه الذهبي بالإمام، الحافظ، أحد الأعلام<sup>١٠</sup>.

وقال عبد الله بن نافع: جالست مالكا خمسا وثلاثين سنة<sup>١١</sup>.

---

<sup>٦</sup> - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، دار إحياء التراث (١٩٥ /٥)

<sup>٧</sup> - صحيح مسلم (٢٠١ /٢)

<sup>٨</sup> - صحيح البخاري (٢٥ /١)

<sup>٩</sup> - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٣١ /٦)

<sup>١٠</sup> - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٢٧ /٦)

<sup>١١</sup> - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٠٨ /٨)

وقال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة <sup>١٢</sup> .

والمكانة عند الله تعالى ليس بكثرة الأتباع ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمْشُونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ <sup>١٣</sup> .

نبي ولا يوجد معه تابع واحد ؟ نعم ، ولكن منزلته عند الله تعالى عظيمة ، فهو نبي من أنبيائه ، ممن اختارهم واجتباهم ، وإن لم يكن له تابع واحد .

قال الربيع: قال لي الشافعي: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله، فما لله ولي . وقال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة <sup>١٤</sup> .

## ٥ - زهد الحركات الإسلامية بالعلوم الشرعية .

هم يعملون للإسلام في كل الحقول ، السياسية والاجتماعية و الدعوية وغيرها ، ولكنهم زاهدين في العلوم الشرعية ، وأنا إذ أتحدث عن هذا فإنما أتحدث عن السواد الأعظم ، وإلا فالخير لا ينعدم ولا ينقطع إلى قيام الساعة .

فهذه جماعة تعتنى بالفقه الإسلامي في إطار ما كتبه مؤسسها ، وإن أنت لم تتبنَّ ما سطره من الفقه فقد حُكم عليك بالطرْد شئت أم أبيت ، فهكذا فقههم الإسلامي .

---

١٢ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٤ / ٥)

١٣ - صحيح البخاري (١٢٦ / ٧)

١٤ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٥٣ / ١٠)

فالفقه عندهم مجموعة كراسات تأخذها ولا ترد منها شيئاً . فهل هذا هو  
الفقه ، وهل هذا هو العلم ، وهل ... وهل ...؟!!!

فقد طلب أبو جعفر المنصور من الإمام مالك أن يضع كتاباً في العلم يجمع  
الناس عليه . فقال له مالك : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على  
قول رجل واحد يخطئ ويصيب ، وإنما الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد  
تفرقت أصحابه في البلدان، وقلد أهل كل بلد من صار إليهم ، فأقر أهل كل بلد  
على ما عندهم .<sup>١٥</sup>

وجماعة أخرى تتبّع الرخص ، وتأخذ كل ما هو أسهل بغض النظر عن  
الراجح أو الشاذ أو .. أو .. .

قال الإمام الشاطبي : " وليس تتبع الرخص ولا اختيار الأقوال بالتشهي  
ثابت من أصولها فما قاله عين الدعوى ثم نقول تتبع الرخص ميل مع أهواء  
النفوس والشرع جاء بالنهي عن اتباع الهوى فهذا مضاد لذلك الأصل المتفق عليه  
ومضاد أيضاً لقوله تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النساء:  
٥٩] وموضع الخلاف موضع تنازع فلا يصح أن يرد إلى أهواء النفوس ، وإنما يرد  
إلى الشريعة ، وهي تبين الراجح من القولين ، فيجب اتباعه لا الموافق للغرض "<sup>١٦</sup>

وهم إذ يتبعون الرخص - بل وتتبعونها أيضاً - ينظرون إلى أهل العلم نظرة  
من ينظر إلى من هو في ذيل القافلة ، إلا أن يصبح صاحب العلم ذا مكان أو  
مكانة في التنظيم فيكون له التقدير، ولكن هذا التقدير ليس للعلم فقط ، فالعلم

<sup>١٥</sup> - انظر الموافقات للشاطبي ، دار المعرفة (٣/ ٣٢٩)

<sup>١٦</sup> - الموافقات للشاطبي ، دار المعرفة (٤/ ١٤٥)

مكتملٌ وليس أصلاً ، وإلا فهناك من أهل العلم من لا يؤبه به لعلمه رغم شهادته العلمية أو قوته وتمكنه في العلوم الشرعية .

فمصافحة المرأة جائزة ، وغناء المرأة جائز ، والموسيقى جائزة ، وعلى هذا فقس ، وليس المقصود حصر المسائل ، بل المقصود بيان لون المسائل التي تلقى رواجاً عندهم ، فهي المسائل التي دار فيها القول مع الهوى والتشهي .

وجماعة أخرى تدعو إلى فضائل الأعمال ، والعلم عندها آخر ما يخطر بالبال ، يقرؤون الحديث فيخطئون ، ويعظون فلا يفرقون بين حديث صحيح وآخر ضعيف ، بل قد يؤلف بعضهم القصص والحكايات بنية الوعظ .

وجماعة أخرى تدعو الناس إلى العلم ، ولكن أي علم هذا ؟ إنه العلم الذي يخرج من تحت عباءة شيوخها ، فهي جماعة لا تعترف بأي علم لا يخرج من تحت عباءة شيوخها ، بل زد على عدم اعترافها به أنها ترمي أصحابه بالجهل والبدعة والضلال ، وتحذر من كتبه .

إنها جماعة تجعل اجتهاداتها عقيدة عند متبعيها ، فلو خالفت بعضهم بصيام السبت جفاك ، وبكل وصف غير لطيف رماك ، وهو لا يعلم من تصحيح الحديث إلا اسمه ، ولا من علم علل الحديث إلا رسمه .

ففي يوم من الأيام تعرّف إلي شاب من أتباع هذه الجماعة وأراد أن يكسبني مناصراً ، وعندما بدأ دعوته ، بدأ بتجهيل علماء الأمة ليرفع من شأن مشايخه ، وقال لي : الدكتور الفلاني يردّ صحيحي البخاري ومسلم .

فقلت له : كلامك غير صحيح ، ألا ترى هذا الرجل الذي يصلي سنة المغرب إلى العمود ، إنه من تزعم أنه يردّ صحيحي البخاري ومسلم ، فتأكد منه .

فقيام الغضبان ، كأني قد أسأت إليه إذ طلبت منه أن يتأكد مما سمع!!  
والعجيب أنني التقيته في اليوم التالي عند صلاة الظهر فسلمت عليه ،  
فنظر إلي ولم يرد السلام ، ومن ذلك اليوم يمر كأنه لا يعرفني ، لا سلام ولا كلام .  
إن الحركات الإسلامية لا تقيّم الفرد إلا بمكانته في الجماعة ، فكلما زادت  
مكانته زادت قيمة علمه ، فالمكانة أصل والعلم تبع .

## ٥ - البعد عن الدين

إذا أراد الواحد منا أن يعالج ابنه فإنه لا يذهب به إلى أي طبيب ، بل يحاول  
أن يجد طبيباً ماهراً ، لماذا ؟ لأنه يخاف على ابنه .  
من يمتلك سيارة فاخرة غالية الثمن ، فإنه لا يذهب بها إلى أي مصّح  
للسيارات ، وإنما يذهب إلى مؤسسة تقنية ، لماذا ؟ لأنه يخاف على سيارته .  
وإذا أراد الواحد منا بناء بيت فإنه يبحث عن أفضل بناء أو أفضل مكتب  
هندسي ، لماذا ؟ لأنه يريد بيتاً رائعاً .  
ولكنّ كثيراً من الناس إذا أراد معرفة حكم شرعي ، فإما أن يجتهد من قبل  
نفسه ، رغم بأنه ليس أهلاً للاجتهد ، وليس طالب علم يعرف مواقع المسائل في  
دواوين العلم فيستخرجها ويفهم ما فيها في ضوء ما تعلمه من موازين العلوم  
الشرعية .

إنه ليس مجتهداً ولا طالب علم ولا يسأل من عنده العلم ، وإنما يأخذ بأي قول يسمعه من هنا وهناك بشرط أنه يوافق هواه .

إنه لا يتحرى الأتقى والأورع والأعلم ، لماذا ؟ لأنه لا يخاف على دينه .

فعندما يزداد الالتزام بالإسلام في قلب المسلم فإنه يحرص على دينه ، ويتمثل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ** (صحيح مسلم (٥٠ / ٥) وانتبه لجملة " وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ " وتأملها ، تعلم أن التحري في دين الله واجب ، وأنه لا يجوز الإقدام على أمر لم يُحسم عندك حلُّه حتى تسأل وتستفصل ويستبين لك الأمر ، ليخرج من دائرة الشبهات إلى دائرة البيّنات .

## ٦ - علماء النفاق والسلطة .

إن تلك الشردمة التي أساءت للإسلام إساءات كثيرة ، وشوّهت صورة علمائه في أعين عامة الناس تشويهاً عظيماً ، لقد أبرزوا صورة العالم بصورة المنافق الذي يُظهر أنه من أهل العلم والتقوى ، بينما حقيقة عمله تظهر أنه من أهل الخديعة والنفاق ، شوّهوا بفعالهم صورة العالم الصادع بالحق والباذل كل رخيص وغالٍ في سبيله إلى متزلف متسلّق يبيع آخرته بحطام دنياه ، لقد شحبت صورة العالم في نفوس الناس إلى درجة أصبحت فيها من الشحوب بمنزلة لا تظهر ملاحظتها في عقول الناس وقلوبهم .

والمشكلة الحقيقية أن الناس لا يعرفون العلماء إلا عن طريق المناصب والألقاب والإعلام ، وهذه الأمور - وللأسف - في يد من لا يجب المستقبل لهذا الدين ، وفي هذه الأيام ظهرت الفضائيات ، وظهرت المحطات الدينية ، ولكن اختلط الأمر كثيراً على العامة ، لأنها قنوات في جملتها ترفع شعار الإسلام ، ولكن الحكومات ، أو قل الرّاعين لهذه القنوات يسيرون الإعلام الديني لصالحهم ، واستثني القليل .

في هذا البحر المتلاطم الذي يفتي فيه علماء السلطة لطغاة الأرض أن يقتلوا شعوبهم من غير مسوّغ إنساني علاوة على المسوّغات الشرعية ، يتهافت علماء السلطة عند الخروج من المسجد بالمبادرة لمناولة الحاكم حذاه ، كمبادرة لتبعيته المطلقة ، في هذا التهافت والتلاطم يستحقر الناس العلماء ؛ لأن الناس لا يمتلكون بوصلة التمييز الدقيقة ، ولا استطيع مطالبتهم بامتلاكها ، ومن الناس من يقدر العلماء من باب الورع ، لأن العلماء في نهاية الأمر أهل العلم والخير وإن أصابهم ما أصابهم ، ولأن منهم المخلصون .

أسمع منذ طفولتي شتيمة قبيحة ، أسمعها من أبناء جيلي وممن هم أكبر مني ، أسمعها في المدرسة من الطلاب ، وفي الشارع من الشباب ، إنهم إذا ما غضبوا لعنوا المفتي ، ولم أكن أتلفظ بها في صغري ، ولكنني لم أكن أعرف معناها حتى زمن ، إنهم يشتمون عالم الدين ، فالإفتاء منزلة لعالم الدين إذا بلغ منزلة رفيعة في العلم ، ولكن ما سبب هذه الشتيمة ، أهي كره الإسلام؟! فالحقيقة أنها ليست كذلك ، ولكنها كره لسلوك كثير من علماء السلطة .

عندما هان رموز العلم هان العلم في عيون الناس .

## ٧ - تشويه صورة علماء الدين في الإعلام

لقد دأب الكفار والمنافقون على الاستهزاء بدين الله - سبحانه وتعالى-، فقد استهزؤوا بالقرآن الكريم ، و بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم- وبشرائع الإسلام ، و ما كل هذا الاستهزاء إلا للكفر الذي عشش في قلوبهم ، و تربع على عرش أهوائهم ، وتملك عقولهم ، فغدوا ساخرين مما لا يسخر منه ، فاستهزؤوا بالأنبياء و المرسلين ، كنوح و هود و شعيب و لوط و موسى عليهم السلام ، و كذلك فقد استهزؤوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - و بما جاء به .

و لم يكتف الكفار والمنافقون المستهزئون من الاستهزاء بالأنبياء و شرائع الإسلام و عقيدته ، بل استهزؤوا بالمؤمنين ، استهزؤوا بصفاتهم و أفعالهم و أفكارهم و سماتهم الحسن و قولهم الطيب ، و ما تزال هذه الجادة المعوجة ، هي جادة الكفار والمنافقين التي يسرون عليها ، و ينتهجون نهجها في صحفهم و إذاعتهم و لقاءاتهم....

لقد صور الإعلام السيئ عالم الإسلام بصورة الأبله الغبي (الأهبل) ، الذي يتصرف مع الناس بغباء فيضحكون منه ويدارونه على غبائه لأنه يمثل بقية الإسلام في المجتمع .

ولقد صوروه أيضاً بصورة الشره الأكل ، الذي يقطر اللبن والشراب من لحيته من فرط شراسته .

وصوروه بصورة الإنسان العفن ، ملابسه رثه و لحيته شعثاء ، وصوروه بالبخيل الذي يأمر الناس بالصدقة ولا ينفق ، وصوروه بالمتشدق بالكلام المتفيهق



الذي يتكلف الكلام بطريقة مقززة ، وصوروه .. وصوروه ... وإن كنا نرفض هذه الصور إلا أن تكرارها يؤثر في شعورنا من حيث لا نعلم ، أما بقية الناس فمنهم من يقتنع ؛ وذلك لجهله وسداجته ، ومنهم من يريد أن يقتنع ؛ لأنه لا يجب الالتزام من الأصل .

وهذا ما فعله منافقو العهد النبوي في غزوة تبوك ، فعن عبد الله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء !

فقال رجل في المجلس : كذبت ، ولكنك منافق ! لأخبرن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : فأنا رأيته متعلقاً بحَقَب ١٧ ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تنكبه الحجارة ، وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ! ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ١٨

لقد تعلل المنافقون بأن ما فعلوه كان خوضاً ولعباً فرد عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن هذا استهزاء فقال لهم : “أبالله وآياته كنتم تستهزئون“

أي إن هذا الخوض وهذا اللعب هو استهزاء ، فلم يلتفت النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما اعتذروا به بل أنزلهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء.

(١٧) الحَقَب : الحبل الذي يشد به الرجل في بطن البعير

انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، الجزء ١ ، ص ٣٢٤ .

(١٨) وسنده حسن . انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ، تحقيق محمود شaker ، (١٤ / ٣٣٣-٣٣٤)

وأضرب مثلاً بشاعر الأردن في القرن الماضي مصطفى وهبي التل ، وهو يستهزئ برئيس القضاة وبالعلوم الشرعية ، ورغم تعاقب السنون فما زال هذا الشاعر يحظى بالاحترام والتقدير ، ولذا سأختار نموذجاً يسيراً من شعره ، وأترك التعليق لك :

عبود<sup>١٩</sup> يا ناعي النهار على المآذن في العشية

قسما بماحص والفحيص وبالطفيلة والثنية

وبمن شقيت بمن وهي بأهلها مثلي شقية

ليس الهدى وقفاً على فئة الشيوخ الأزهرية

إن الحياة لها قواعد غير متن الخزرجية

فنبذ ( قعوار ) اللذيد وأثّه الناي الشجية

وهيامنا بالغانيات من الامور الجوهرية ( ٢٠ )

ويقول أيضاً :

بالنفس ، يا شيخ ! من تقواك أشياء ضاقت بها من فسيح الصدر أرجاء

---

( ١٩ ) وعبود هو رئيس القضاة في عهد إمارة شرق الأردن .

( ٢٠ )

أكلّ يومين ترميني بموعظة فضفاضة نسجها : فقه وإفتاء

يا شيخ! يا شيخ ، إنيّ لم أعد عرضاً للناس ، يرمونه بالعتب ما شاءوا

يا شيخ ! ما العلم ؟ حسب المرء معرفة أنّ الشفاه بوادي السّير لمياء<sup>٢١</sup>

وعن ابن المبارك، قال: من استخف بالعلماء، ذهب آخرته ٢٢.

---

<sup>٢١</sup> (<http://qsayed.elaana.com/poems-9469.html>)

<sup>٢٢</sup> - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٨ / ٤٠٨)

## ثانياً : أسباب الضعف في العلوم الشرعية

### ١ - ضعف المدرّسين .

عذراً وعذراً مسبقاً لقولي بأن كثيراً من مدرسي العلوم الشرعية ضعاف ، وهذا الأمر غير مقتصر على تخصص العلوم الشرعية ، ولكن ما يهمني في هذا السياق هو تخصص العلوم الشرعية .

قد يقول لي قائل : إنك تبالغ . فأقول له : ما أقوله هو تجربة من أمضى من عمره ما يُقارب ثماني سنوات في الدراسة الأكاديمية ، وأمضى سنوات كثيرة مطالعاً ودارساً لما يسطره كثير من مدرسي العلوم الشرعية .

ولكن ما هو سبب الضعف العام عند مدرسي العلوم الشرعية ، الأسباب هي نفس الأسباب التي أدت إلى الضعف العام عند جل طلاب العلوم الشرعية .

أضف إلى ذلك طبيعة العلوم الشرعية ، فهي علوم تخاف منها الأنظمة الظالمة ، لأنها علوم تبين حقيقة الأشياء ، وتعطي كل شيء حكمه اللائق به ، فتقول عندئذ : هذه أنظمة ظالمة ولا يجوز طاعتها في الأمور التالية لأنها معصية لله تعالى . ومن هنا فإن يد هذه الأنظمة تمتد لتعيين عدد لا بأس به من معلمي هذه العلوم ، والعدد الآخر لا بد أن يكونوا قد فهموا اللعبة ، وأن يفهموا أن من خرج عن الدائرة المرسومة حوله فإن الفصل ينتظره ، وقد يسكت عن علماء لاعتبارات أخرى ، لا داعي لذكرها .

فضعف المدرّسين من جهة نتاج للضعف السابق ، ومن جهة أخرى سبب في الضعف اللاحق ، ولو شئت التحدّث في هذا الجانب لتحدّثت طويلاً ، وفيما يلي أسباب ضعف المدرّسين :

## ٢ - ضعف المناهج .

لكل علم من العلوم طبيعة مختلفة عن العلوم الأخرى ، فمن يدرس علم الفلك يحتاج إلى مرصد وغير ذلك من لوازم الدراسة ، وكذلك من يدرس الطب ، ومن يدرس الكيمياء ، إلى غير ذلك من العلوم .

العلوم الشرعية لها طبيعة مختلفة ، وأسلوب تدريس يختلف عن غيره من العلوم ، وهذا لم يراعَ في وضع المناهج .

مناهج الشريعة تخلو من التدريب على الاجتهاد إلا شيئاً يسيراً ، ومعظم المناهج إنما هي سرد للأقوال دون تمحيص وفحص يرتقي لدرجة التدريب على الاجتهاد .

وهناك اعتراضات حقيقية على المناهج ، ولكن لا تصلح هذه العجالة لحصرها وبيانها .

ولا يعني هذا أن المناهج جميعها ضعيفة ، لا بل فيها أشياء كثيرة رائعة ، والمشكلة أن بعضهم قد يبرز لي مفردات المواد ومراجعها ، فأنبهر ، نعم ، حق لي أن أنبهر ، لأنها مفردات ومراجع لو استكملها طالب العلم لبلغ مرتبة الاجتهاد أو كاد أن يكون منها قاب قوسين أو أدنى ، ولكنه كما يُقال حبر على ورق ، فلا

عدد الساعات يكفي ، ولا القوة العلمية لكثير من الدكاترة تكفي ، ولا الدافعية العلمية عند الطلاب تكفي ، ولا ... ولا ...

فما هو المنهاج الذي يتخرج الطالب به من مرحلة البكالوريوس في الشريعة ولم يدرس تفسيراً ميسراً في القرآن ، يدرسه من أوله إلى آخره ، ولم يدرس مختصر صحيح البخاري أو مختصر صحيح مسلم دراسة ظاهرة للمعاني والتراكيب ، ولم يدرس كتاباً في الفقه الإسلامي على مذهب معين بأدلته من أوله إلى آخره .

عماد العلوم الشرعية القرآن وعلومه ، والسنة وعلومها ، والفقه وأصوله ، والباقي تبع لهذه الأساطين ، فلماذا يُعطى الفرع حظ الأسد ، ولا تعطى الأصول إلا ما فضل من الأوقات .

### ٣ - ضعف الطلاب .

إنه ضعف مركب من ضعف في التحصيل الشرعي والتحصيل المسبق عند طلاب الشريعة ، فهم من أقل الطلاب معدلاً ، وهذا لا يعيهم ، لأن العلوم الشرعية قد لا تحتاج إلى شيء ما تحتاج إلى عقل متفتح ، وقوة باللغة العربية ، ومن هنا ينطلق ، فالرياضيات واللغة الإنجليزية والعلوم والكيمياء والفيزياء والجغرافيا والتاريخ وغيرها ليست من ركائز العلوم الشرعية ، ورغم ضعف التحصيل في اللغة العربية ، فإن قلة الدافعية تثقل كاهل طالب العلوم الشرعية أن يكون طالباً مجتهداً .

قلت لأحدهم : لماذا لا تجتهد في دراستك ؟ فقال : ولماذا أجتهد ؟ لو تخرّجت من الجامعة بعلم الإمام الشافعي فلن يعترف المجتمع بي ، بل لن أجد عملاً يناسب علم الشافعي ، فإما أن أعمل إمام مسجد أقيم الشعائر أو معلم مدرسة

أعلم الصبيان ، أو أعمل عملاً حراً ، وفي كل الحالات ما أتعلمه يكفيني لأعرف ديني ، فلماذا الجهد والكد والتعب؟!

## 5 - ضعف الاعتراف المجتمعي بشهادة العلوم الشرعية .

الناس لا يرون خريج العلوم الإسلامية ذا كفاءة للفتوى ، بل بعضهم لا يرى أعلم العلماء ذا كفاءة إذا خالف ما يجب .

قيل فيما قيل : عادات السادات سادات العادات . وقيل : الناس على دين ملوكهم .

إنه الواقع المر والثمر الحنظلي الذي نقطفه من النظرة الرسمية لطلاب الشريعة ، نظرة لا تأخذ بيده إلى شاطئ الأمان ولا إلى أمان الشاطئ ، من العادة الجارية أن الخريج الجديد بحاجة إلى تدريب ، وهذا ما نلمسه في تخصصات الهندسة والمحاماة والطب وغيرها ، ولكن من الغريب أن لا نعتز بالخريج بعد التدريب واكتساب المهارة اللازمة .

أخبرني صديقي الذي يحمل درجة الماجستير في الفقه الإسلامي وهو صاحب علم وفضل ، أخبرني أنه في يوم من الأيام تنازع الناس في مسجده بمسألة من مسائل الصلاة ، فقال الناس : لا بد أن نسأل عالماً بهذه المسألة . فقال بكل تواضع : المسألة واضحة وأقوال العلماء فيها متفقة والجواب هو كذا وكذا . وإذا بأحد الناس يقول له : لا تفت ، فإن الفتوى حرام لمن ليس عنده علم . فقال لهم : ألا تعلمون أنني حاصل على درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية؟! فقال بعضهم : نحن لا نعتز بهذه الشهادات ، وكلها (كلام فارغ) .

فقلت له : ما حصل معك يحصل مع غيرك ، بل حصل مع كبار العلماء ،  
بل حصل مع الأنبياء الذين يأتيهم الوحي .

والمشكلة الأخرى هلامية تعريف العالم عند الناس ، فمن هو العالم ، وما  
هو تعريفه ، هل العالم هو من زكاه شيوخ السلفية ، أم العالم من قدّسه سالكو  
الصوفية ، أم العالم من أحسن البيان والخطابة والوعظ عبر ترددات الفضائيات  
وليس عنده من العلم مقدار أوقية ، أم العالم من تقبّله الإخوان أو ارتضاه حزب  
التحرير ، أو من أعطاه النظام الرسمي لقباً أو منصباً ، أو من حصل على ألقاب  
علمية سامية بأبحاث نظرية معدودة لا تعدو كونها نقطة في بحر علوم الشريعة ؛  
فالعالم عند السلفية غيره عند الصوفية ، والعالم عند الإخوان غيره عند حزب  
التحرير ، والعالم في الأوساط الأكاديمية غيره عند القاعدة ، والعالم في النظام الرسمي  
غيره عند عامة الشعب .



## ثالثاً : مقترحات علاجية لأسباب الإهمال

### والضعف .

#### ١ - اختيار الكفاءات التدريسية

عندما يقوم اختيار المدرّسين وفق الكفاءات الحقيقية بعيداً عن الاعتبارات غير العلمية فهذا يعني تقدُّماً في التعليم ، وعندما يتم تقييم المدرّسين في الجامعات فهذا يعني التزاماً أكبر في التعليم ، أذكر في يوم من الأيام أنني تذاكرت مع أصدقائي - وهم أصحاب تخصصات شتى - طريقة الدكتوراة في التدريس ، فخلصنا إلى القول أن الكثير منهم لا يدرّس بخمسة قروش ، زيادة على أن يكون مبدعاً ، فلقد كان معلمو المدرسة ملتزمين بالتعليم التزاماً رائعاً إذا ما قورنوا بدكاترة الجامعات .

وكثير من دكاترة الجامعات موظفون لا يحملون رسالة ، ومثل هذا لا يمكن أن يرفع من مكانة الطالب العلمية إلا إلى أدنى المستويات .

الكثير من الطلبة في كافة المستويات يرفعون من قدر مدرّسيهم أمام عامة الناس ، لأن طعن الطالب بمستوى مدرّسه يحط من قدره العلمي أمام عامة الناس ، ولكن إذا ما جلس الأصدقاء أو أصحاب التخصص الواحد أفضوا بما عنهم من الطامات وأساليب الدكتوراة في تضييع المحاضرات ، بل قال لي صديق

: كان عندنا دكتور في الجامعة يتقن فن القصص في إضاعة الحصص . فتأمل  
رعاك الله!

وعن مالك أنه قال: لا يؤخذ العلم عن أربعة:

١ - سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس .

٢ - وصاحب بدعة يدعو إلى هواه .

٣ - ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتهمه في الحديث .

٤ - وصالح عابد فاضل، إذا كان لا يحفظ ما يحدث به <sup>٢٣</sup> .

## ٢ - تجديد المناهج الدراسية

لكل تخصص اعتبارات خاصة به ، فعلى هذا يجب أن تبني المناهج على مبدأ : أعطِ ولدك سمكة وعلمه -أيضاً - كيف يصطاد السمك <sup>٢٤</sup> ، فعلى المدرّس أن يزود طلابه بالمعلومات مستخدماً كل الأساليب الناجعة والمتاحة ، ولكن لا بد أن يعلمه كيف يحصل على المعلومة وكيف يدققها ويحققها ويمحصها .

---

٢٣ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٦٨ / ٨)

٢٤ - وإن كانت الحكمة الدارجة : لا تعطِ ولدك سمكة ولكن علمه كيف يصطاد السمك . إلا أنني قصدت ما قلت

إن تدريس العلوم على مبدأ : في المسألة قولان . وبعدها ينتقل المدرّس إلى مسألة جديدة قد يكون فيها أربعة أقوال ، إن هذا المبدأ لا يتخرّج به دعاة فضلاً عن علماء .

وأذكر كتاباً في أحكام الصوم مقرر في إحدى الجامعات ، كل ما فيه ، قال أبو حنيفة بكذا وقال الشافعي بكذا . ولا يذكر الأدلة في معظم المسائل ، وإن ذكرها فإنه لا يناقشها ولا يبين الصحيح من الضعيف ، ولا يرجح في أكثر المسائل ، وإن رجّح فبالجملة ، عندما يذكر الأقوال وما استدلوا به ، يذكر ذلك ذكراً من غير تمحيص ، يأتي في نهاية البحث ويقول : والرأي القائل بكذا هو الأرجح ، والموافق للأدلة . بدون بيان وجه الرجحان، وعندما نظرت في الكتاب قلت : حسبي الله ونعم الوكيل في الدكتور والجامعة ومن له شأن بهذا ، يضيعون أوقات الطلاب بسبب ضعفهم وضعف مناهجهم.

### ٣ - رفع الأجور .

لا بد من رفع الأجور التي تضمن لطالب العلوم الشرعية عيشاً كريماً ، والموضوع ليس بحاجة إلى كثير كلام ، فمهنة لا تضمن لصاحبها العيش الكريم ، مهنة يزهد فيها كثير من الناس ، قد تكون هذه المشكلة مشكلة تخصصات كثيرة في مجتمعاتنا ، ولكنني بصدد العلوم الشرعية ، ولذا خصصتها بالذكر .

#### ٤ - إيجاد مؤسسات علمية تطويرية

لا بد من وجود مؤسسات علمية تقوم على تطوير طلاب العلوم الشرعية ، كأن تجري هذه المؤسسات امتحانات للخريجين تمنحهم بكل امتحان لقباً علمياً عملياً ، ما يدفع طلاب العلوم الشرعية إلى الحصول على هذه الدرجات العلمية عن طريق الامتحانات دون الداعي إلى التفرغ ودفع الأموال الطائلة في بعض الدراسات الأكاديمية ، ما يطورهم ويدفعهم إلى الأمام علمياً ومهنياً .

#### ٥ - تغيير النظرة المجتمعية

الإجراءات التي تتخذها الحكومات لها الأثر الكبير في تغيير النظرة المجتمعية ، فرفع مستوى التعليم ورفع الأجور والمؤسسات العلمية التطويرية ، وتوجيه الإعلام ، وغير ذلك كل هذا سيغيّر من نظرة المجتمع لدراسة العلوم الشرعية .

#### ٦ - قيام الحركات الإسلامية بواجبها اتجاه العلوم الشرعية

عندما تضع الجماعات الإسلامية العلوم الشرعية - بمعناها الموضوعي - في قائمة الأولويات ، وعندما تعطيه حقه ، ساعتها ستبدأ البذرة بالنماء عند العاملين في حقل الدعوة ، وبعدها - وبعدها فقط - سيظهر أثر هذا النماء في ميادين الحياة .

## ٨ - تحديد مفهوم العالم الشريعة .

عندما تسعى الجامعات الفقهية والهيئات الشرعية في بيان ماهية العالم الشرعي عبر وسائل الإعلام الإسلامية من قنوات فضائية ومحطات الإذاعية وصحف ورقية وإلكترونية ، عندها تتضح الصورة ، وعندما يُعقد امتحان في مؤسسات علمية محترمة يحصل الناجح فيها على درجة عالم ، أو ما شابه هذا ، عندها سيتم التخفيف من هذه الفوضى العلمية ، أقول التخفيف وليس الإنهاء.

## ٨ - سنة الله في ابتلاء أصحاب الدعوة

ولا بد أن يعلم أصحاب العلوم الشرعية أنه إن نالوا مكاسب الدنيا والآخرة وتقدير الناس فإن هذا يعني أن كثيراً من مَنْ لا يستحق شرف العلوم الشرعية سيدرسها ليصبح عالماً طمعاً بالدنيا ، ولكن الابتلاء والتمحيص والعقبات هي التي تستخلص المستحقين لهذا الشرف ، فطلب العلم الشرعي عبادة والعبادة لا تقبل إلا بإخلاص النية ، ولهذا فإن من طلب العلم لدنيا يصيبها أو لجاه يحصل عليه ، فإنه كمن عبد الله للدنيا لا للثواب والأجر ، وهذا رياء يأثم صاحبه .

## (كلمات - لا بد منها - موجهة لطالب العلم)

وينبغي على طالب العلم أن يعلم أن هذا العلم بحاجة إلى إنفاق ، ولا ينظر إليه كمشروع اقتصادي ؛ فهذا شيخ المحدثين وعمدة الجرح والتعديل يحيى بن معين ، لما مات أبوه ترك له ألف ألف درهم ، فأنفقها ابن معين في طلب العلم حتى لم يبقَ له نعل يلبسه ٢٥. وقيل في حق ابن معين : كُلُّ حَدِيثٍ لَا يَعْرِفُهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، فَلَيْسَ هُوَ بِحَدِيثٍ ٢٦.

وهذا إسماعيل بن عيَّاش ورث عن أبيه أربع آلاف دينار فأنفقها في طلب العلم ٢٧. وقال الذهبي في حقه : الحَافِظُ، الإِمَامُ، مُحَدِّثُ الشَّامِ، بَقِيَّةُ الأَعْلَامِ ٢٨.

وقد أنفق الفقيه هشام بن عبيد الرازي في طلب العلم سبعمئة ألف درهم ٢٩.

وأنفق الإمام الحافظ محمد بن سلام السُّلَمِيُّ أربعين ألفاً في طلب العلم وأربعين ألفاً في نشره ٣٠.

٢٥ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١١/ص٧٧)

٢٦ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١١/ ٨٠)

٢٧ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٨/ ٣١٥)

٢٨ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٨/ ٣١٢)

٢٩ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٠/ ٤٤٧)

٣٠ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٠/ ٦٣٠)



وهذا عطاء بن أبي رباح الإمام، شيخ الإسلام، مفتي الحرم ٣٨، كان يصنع المكاتيل ٣٩، والمكتل هو ما يحمل به الزبيب والتمر ونحوه .

وهذا مُفَضَّلُ بْنُ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدِ الْقَتَبَانِيِّ الْمِصْرِيِّ الْإِمَامِ، العلامة، الحجة، القدوة، قاضي مصر ٤٠، وكان يعمل الأرحية ٤١ . والأرحية جمع رحي ، وهي ما يطحن به القمح ونحوه ٤٢ .

وهذا بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَطَاءِ الْمُرُوزِيِّ الْإِمَامِ، المُحَدِّثُ، الزَّاهِدُ ، كان يصنع المعازل ٤٣ .

وكان عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، الْإِمَامُ، الْقُدْوَةُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، وكان يعمل القلائس، ويأكل من كسبه ٤٤ . والقلائس تلبس على الرأس .

وينبغي أن يعلم طالب العلم أن فقره وقلة عمله تضعف دعوته ، فقد جاء رجل إلى الثوري يشاوره في الحج ، فقال الثوري : لا تصحب من يكرم عليك، فإن ساويته في النفقة أضربك ، وإن تفضل عليك استذللك .

ونظر إليه رجل وفي يده دنانير، فقال: يا أبا عبد الله! تمسك هذه

الدنانير؟!

فقال الثوري : اسكت، فلولاها لَتَمَنَدَلَ بنا الملوك ٤٥ .

٣٨ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٧٨ / ٥)

٣٩ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٨٠ / ٥)

٤٠ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٧١ / ٨)

٤١ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٧٢ / ٨)

٤٢ - لسان العرب (٣١٢ / ١٤) مادة " رجا "

٤٣ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٤٧١ / ١٠)

٤٤ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٢٥٧ / ١٧)



وَتَمَنَّدَل ، أَي : جعلونا مناديل يتمسحون بها .

وقد يَمُرُّ بطالب العلم شدة ، وهذا شأن كثيرٍ من أهل العلم ، فقد أفلس الإمام الشافعي ثلاث مرات ، ما اضطره أن يبيع حلي زوجته وابنته <sup>٤٦</sup> .

وهذه قصة للإمام البخاري تدل على صبره على قلة النفقة التي تطراً في طلب العلم ، قال محمد بن أبي حاتم ، سمعت البخاري يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفت عني نفقتي، حتى جعلت أتناول الحشيش، ولا أخبر بذلك أحداً.

فلما كان اليوم الثالث أتاني آت لم أعرفه ، فناولني صرة دنانير، وقال: أنفق على نفسك <sup>٤٧</sup> .

---

٤٥ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٢٤١ /٧)

٤٦ سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٣٧ /١٠)

٤٧ - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (٤٤٨ /١٢)

## (قصة جميلة في الرحلة لطلب العلم)

قال أبو الحسن الصفار الفقيه، قال: كنا عند الحسن بن سفيان، وقد اجتمع إليه طائفة من أهل الفضل، ارتحلوا إليه، فخرج يوماً، فقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل الإملاء: قد علمنا أنكم من أبناء النعم، هجرتم الوطن، فلا يخطر ببالكم أنكم رضيتُم بهذا التجشم للعلم حقاً، فإني أحدثكم ببعض ما تحملته في طلب العلم:

ارتحلت من وطني، فاتفق حصولي بمصر في تسعة من أصحابي طلبه العلم، وكنا نختلف إلى شيخ أرفع أهل عصره في العلم منزلة، فكان يملي علينا كل يوم قليلاً، حتى خفت النفقة، وبعنا أثاثنا، فطوينا ثلاثاً، وأصبحنا لا حراك بنا، فأحوجت الضرورة إلى كشف قناع الحشمة وبذل الوجه، فلم تسمح أنفسنا فوقع الاختيار على قرعة، فوقع علي، فتحيرت وعدلت، فصليت ركعتين، ودعوت، فلم أفرغ حتى دخل المسجد شاب معه خادم، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟

قلت: أنا.

قال: إن الأمير طولون يقرئكم السلام ويعتذر من الغفلة عن تفقد أحوالكم، وقد بعث بهذا وهو زائركم غداً.

ووضع بين يدي كل واحد مائة دينار، فتعجبنا وقلنا: ما القصة؟

قال: دخلت عليه بكرة، فقال: أحب أن أدخل اليوم.

فانصرفنا، فبعد ساعة طلبني، فأتيته، فإذا به يده على خاصرته لوجع

مض اعتراه، فقال لي: تعرف الحسن بن سفيان وأصحابه؟

قلت : لا .

قال : اقصد المسجد الفلاني ، واحمل هذه الصرر إليهم ، فإنهم منذ ثلاثة أيام جوع ، ومهد عذري لديهم .

فسألته ، فقال : انفردت فتمت ، فرأيت فارساً في الهواء ، في يده رمح فنزل إلى باب هذا البيت ، ووضع سافلة رمحه على خاصرتي وقال : قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه ، قم فأدركهم ، فإنهم منذ ثلاث جوع في المسجد الفلاني .

فقلت له : من أنت ؟

قال : أنا رضوان صاحب الجنة .

فمنذ أصاب رمحه خاصرتي أصابني وجع شديد فعجل إيصال هذا المال إليهم ليزول هذا الوجع عني .

قال الحسن : فعجبنا وشكرنا الله ، وخرجنا تلك الليلة من مصر لئلا نشتهر ، وأصبح كل واحد منا واحد عصره ، وقريع دهره في العلم والفضل .

قال : فلما أصبح الأمير طولون فأحس بخروجنا ، أمر بابتياح تلك المحلة ، ووقفها على المسجد وعلى من ينزل به من الغرباء وأهل الفضل ، نفقة لهم ، لئلا تختل أمورهم ، وذلك كله من قوة الدين وصفاء العقيدة ٤٨ .

<sup>٤٨</sup> - سير أعلام النبلاء ، ط الرسالة (١٤ / ١٦٢)

## (في الخاتمة)

كما بدأنا نعود بالقول : هذا ليس بحثاً أكاديمياً ، إنما هو بثُّ لما في قلب طالب علم من همّ على دينه وعلى علوم شريعته ، ييث ما يشعر به ، مما يراه في الواقع ، ومما يستشرفه من المستقبل ، فقد نتلاقى وقد نفترق ، ولكنها في نهاية الأمر خواطر من الواقع ، فإن تساويننا بالقرب من هذا الواقع ونظرنا من زاوية الخوف على العلوم الشرعية ، ومن زاوية طالب العلم العارف بمدخل الموضوع ومخارجه ، فإن الرؤية ستتحد .

ولله الحمد

كتبه

أبو عمر سامي القدومي